الطرق والزوايا الصوفية بالمغرب
وموقفها من المستعمر

مريم أبضار
باحثة في سلك الدكتوراه شعبة التاريخ
وحدة التاريخ الجهوي للجنوب المغربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر، أكادير
المغرب

مقدمة

بين مطلع القرن العشرين وبداية فرض الحماية الفرنسية على المغرب، لم تكن الزوايا والطرق الصوفية مجرد مؤسسات دينية تعنى بالذكر والتربية الروحية، بل كانت حواضر فاعلة في النسيج الاجتماعي والسياسي المغربي، لها امتدادات قبلية واقتصادية وتعليمية جعلتها في موقع مركزي داخل البنية التقليدية للمجتمع. وفي سياق الاحتلال الفرنسي، أفرزت هذه الوضعية مواقف متعددة من الاستعمار، لم تكن محكومة فقط بالمنطق العقائدي أو الروحي، بل تداخلت فيها اعتبارات المصلحة، والارتباطات التاريخية، والرهانات المحلية، والضغوط الخارجية. فقد وجدت بعض الزوايا نفسها في مواجهة مباشرة مع المشروع الكولونيالي، فانخرطت في أشكال من المقاومة المسلحة أو الرمزية، في حين اختارت أخرى طريق التفاوض أو الحياد أو حتى التعاون، بحسب ما فرضته ظروفها وقراءة شيوخها للوضع الجديد، لهذا كانت "خاضعة للأهداف التي جعلتهم موجهين إيديولوجيا"[1].

ومن خلال هذا التعدد في المواقف، تكشف دراسة الزوايا والطرق الصوفية خلال فترة الاستعمار عن تعقيد البنية الاجتماعية والدينية المغربية، وتبرز كيف أن الفاعلين الدينيين لم يكونوا كتلة واحدة متجانسة، بل كانوا يعيدون تحديد أدوارهم في ضوء التحولات الكبرى. في هذا الإطار، يسعى هذا المبحث إلى تحليل مواقف الزوايا المغربية من الاستعمار الفرنسي، من خلال تتبع تفاعلها مع سياسات الحماية، وتبيّن العوامل التي ساهمت في صياغة تلك المواقف، واستجلاء الأثر الذي خلفته في مسار المقاومة أو التواطؤ، بما يكشف عن الدور المحوري الذي لعبته الزوايا في لحظة من أشد لحظات المغرب حساسية وتحولًا.

موقف الطرق الصوفية والزوايا.

يشكل التصوف والزوايا النسيج والتركيبة الاجتماعية والثقافية والروحية للمغرب عبر التاريخ، إضافة أنها لعبت دورا هاما في التأثير على المغاربة وتوجهيهم، فلقد أسست هذه المؤسسات الروحية لنظام اجتماعي خاص تحيط به هالة من القداسة والتوقير المتمثلة في المقدس في المخيال الصوفي الذي هو عبارة عن "رديف للوجود والبركة والطهارة والسمو والتعالي عن الدنيوي"[2]، فالزاوية كانت صرحا ومركزا للتعليم والإيواء والدعوة، الشيء الذي أهلها لأن تكون فاعلة ومساهمة في بلورة الأحداث، وبطبيعة الحال كانت لها مواقف متباينة كغيرها من مكونات النسيج الوطني حول الاستعمار. فلقد استعملت سلطات الحماية كل الوسائل لاستقطاب شيوخ الزوايا والتحكم فيهم واستعمالهم لمصلحتها، وحرصت "على إحياء أدوارها واستقطاب شيوخها للتدخل في الشؤون السياسة بهدف "شرعنة" الوجود الفرنسي، والحد من نفوذ الحركة الوطنية واستهداف السلطة الروحية للسلطان، "وهو ما رصدته صحيفة "الوداد" من خلال العديد من المقالات المنشورة على أعمدتها ما بين 1952-1955"[3]. وبالتالي سنحاول من خلال هذا المبحث الوقوف عند موقف الطرق الصوفية والزوايا من الحماية الفرنسية وكيف تعاملت معها، وما الدور الذي لعبته سواء في مقاومة المستعمر أو الوقوف معه؟

الطرق الصوفية والزوايا الرافضة للاستعمار

شكلت الطرق الصوفية والزوايا قوة روحية أطرت المغاربة، وقادت الحملات التحسيسية ضد المستعمر، ودعمت المقاومة، فالزاوية كانت ملجأ وملاذا للحماية من المستعمر، كما عملت على تعزيز الوعي الوطني، وحث المغاربة على الجهاد، فهي بمثابة المرشد الروحي والموجه للناس، وبالتالي اتخذت الزوايا والطرقية "الصدارة في اهتمام سلطات الإقامة العامة أثناء الأزمة بينها وبين القصر"[4]، فأنجزت عدة تقارير عنها للتعرف على انتماءاتها السياسية، وكيف يمكن استمالتها واستعمالها لمصالحها.

إلا أن توغل الاستعمار الفرنسي في البلاد، عندما أثر بشكل مباشر على الحقل الديني، أثر كذلك على الزوايا والطرق الصوفية التي اختلف موقفها منه باختلاف السياقات الجهوية، والانتماءات الصوفية، وموقع كل زاوية من السلطة المخزنية[5].

لقد انقسمت مواقف الزوايا من الاستعمار الفرنسي إلى ثلاثة أنماط رئيس:

- موقف مقاوم
- موقف متعاون
- موقف المتردد والحذِر

ويعود هذا التباين في المواقف إلى عدة اعتبارات، منها ما هو ديني، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو مصلحي واجتماعي.

فمن جهة، نجد زوايا صوفية انخرطت في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال باعتبارها "معقلا معارضا للسلطة المركزية في مبالغة هذه الأخيرة في الغزو والظلم"[6]، سواء بصورة مستقلة أو ضمن حركات قبلية واسعة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك زاوية الشيخ ماء العينين في الجنوب، التي أصدرت –كما سنرى في الفصل اللاحق– فتاوى واضحة في الجهاد ضد الفرنسيين، وشاركت بقوة في معارك عدة ضد التوغل الفرنسي في الصحراء. وكذلك الزاوية الدرقاوية[7]، وبعض فروع التيجانية في الجنوب الشرقي وسوس، التي انخرطت في حركات مقاومة محلية بدافع الدفاع عن الأرض والعقيدة[8].

وفي المقابل، ظهرت زوايا أخرى آثرت التكيف مع الوضع الجديد، وسعت إلى الحفاظ على مصالحها ونفوذها الاجتماعي من خلال نسج علاقات متينة مع الإدارة الفرنسية، مقابل ضمان استمرار أنشطتها الصوفية والتربوية. وقد استفادت سلطات الحماية من هذا التعاون[9]، حيث عملت على احتواء الزوايا واستعمالها كوسيط لتهدئة الأوضاع في بعض المناطق، وإضفاء نوع من الشرعية الدينية على النظام الجديد.

أما الموقف الثالث، فكان يتسم بشيء من التحفظ والانتظار، حيث فضلت بعض الزوايا عدم الانخراط في أي من الطرفين، لا تأييدا ولا مقاومة، محاولة الحفاظ على حيادها وتوازنها بين السلطة الجديدة ورغبة أتباعها في عدم الصدام. وقد مثلت هذه الزوايا نوعا من "المنطقة الرمادية" في المواقف، إذ كانت تتحرك وفق مصلحتها وظروفها المحلية.

ويظهر من خلال هذا التباين أن موقف الزوايا لم يكن مبدئيا أو موحدا تجاه الحماية، بل كان يتشكل وفق شبكة معقدة من المصالح والولاءات والانتماءات الجهوية. وهذا ما يُحتم علينا تجاوز الصورة النمطية التي تحصر الزوايا إما في خانة الخضوع أو البطولة، نحو قراءة أكثر تركيبا تضع في الاعتبار البُعدين الديني والسياسي معا.

كما أن هذا الموضوع يُظهر أيضا كيف حاولت الإدارة الاستعمارية إعادة توظيف الزوايا ضمن مشروعها للضبط الاجتماعي، من خلال دعم زوايا بعينها، وإقصاء أخرى، مما أدى إلى إعادة تشكيل الخريطة الصوفية في المغرب، وفق رؤية تخدم مصالح الحماية.

وبالتالي، فإن دراسة موقف الزوايا من الحماية لا يكتمل إلا بفهم دورها التاريخي قبل الحماية، وارتباطها بالمخزن، ووضعيتها الاجتماعية والاقتصادية، ونمط علاقتها بأتباعها. فكل تلك العناصر تسهم في تفسير تباين المواقف بين زاوية مقاومة ترى في الاستعمار خطرا على الدين والوطن، وزاوية متكيفة تعتبره واقعا ينبغي التعامل معه حفاظا على البقاء.

ومن أوجه معارضة الزوايا للاستعمار، نستحضر نموذجا عن الزوايا والطرق الصوفية بنواحي وجدة، "فبناء على الدراسات المنجزة عن مختلف الزوايا ببني يزناسن، تشككت الإقامة العامة في إمكانية تجنيد مريدي تلك الزوايا لخدمة أغراضها وانخراطهم إلى جانبها، رغم إمكانية التأثير على بعض المشايخ لكي يلتزم مريدوهم على الأقل بحياد إيجابي[10]، ولا ينضموا إلى الوطنيين، أي ما كانت تنعتهم الإقامة العامة بالمتطرفين، وتعني بهم هنا أنصار وأتباع حزب الاستقلال "[11]. وعلى أي كانت معظم الزوايا والطرقية منضوية في جبة المستعمر لأسباب مختلفة سنذكرها في المبحث اللاحق، وتجدر الإشارة أن "بالنسبة للأطلس المتوسط حيث كانت زمور وبني مطير وبني ملال من أهم المراكز التي استقطبتها الحركة الناشئة، وتولت شعار المعارضة ضد الحماية مبدئيا وعسكريا"[12].

الطرق الصوفية والزوايا الموالية للاستعمار

انخرطت مجموعة من الزوايا والطرق الصوفية في المشروع الاستعماري وعملت لصالحه، وذلك بناء على المصالح المتبادلة، حيث "قدم شيوخ الزوايا على اختلاف مشاربهم الصوفية للإقامة العامة خدمات كثيرة، تجلت أساسا في إضفاء المشروعية على الوجود الاستعماري بالمغرب"[13]، وقد برز هذا في مناطق متفرقة من البلاد، خصوصا في الوسط والشمال، حيث كانت البنية الاجتماعية والسياسية أكثر تعقيدا، والتدخل الفرنسي أكثر تنظيما ومباشرة. ويثير هذا الموقف إشكالات متعددة تتعلق بطبيعة العلاقة بين الزوايا والدولة، ومدى استقلالها عن السلطة، وحقيقة وظيفتها الدينية والاجتماعية.

ومن بين الزوايا التي اتخذت موقفا متكيفا مع الوضع الجديد نجد بعض فروع الزاوية الوزانية[14]، التي حاولت الحفاظ على امتيازاتها وحرمتها الرمزية من خلال نسج علاقات ودية مع الإدارة الفرنسية بعد نكرانها لذاتها كشرط للقيام بهذه الخطوة[15]، وظهرت الزاوية القادرية في بعض مناطق الشمال كفاعل ديني تعامل بحذر مع سلطات الحماية، لكنه لم ينخرط في مواجهتها، علما أن معظم هذه الزوايا استفادت من سياسات سلطات الحماية التي عملت على استمالة الأقطاب الصوفية واستغلال نفوذهم لتثبيت الاستقرار الاجتماعي. ففي العديد من الحالات، كانت الإدارة الفرنسية تقيم مواسم الزوايا، وتمنح الشيوخ امتيازات مادية ومعنوية، وتحرص

على تأمين الحماية لمقراتهم وأتباعهم، مقابل موقف مساند أو على الأقل غير معارض لوجودها.

ومما لا مجال فيه للشطط، أن سلطات الحماية كانت على دراية بأهمية الزوايا والطرق الصوفية في المجتمع المغربي ودورها الروحي الكبير، لذلك لم يأخذ التعاون فيما بينهما شكلا مباشرا أو معلنا، وإنما اتخذ أشكالا متعددة، منها: تبادل الخدمات، حيث كانت الزوايا توفر نوعا من التأطير الروحي والضبط الاجتماعي في مقابل الدعم المالي أو السياسي الذي تمنحه الإدارة، وكذا الاعتراف الرسمي بالزوايا، وهذا لا يعني وضع الزاوية في زاوية تعادل فيها المخزن على المستوى النظري[16].

لقد عملت سلطات الحماية على منح الاعتراف القانوني لبعض الزوايا، والسماح لها بممارسة شعائرها وتنظيم مواسمها، إضافة إلى توظيف الزوايا في الوساطة القبلية، حيث لجأت سلطات الحماية إلى بعض الزوايا كوسيط بين الدولة والقبائل، خاصة في المناطق التي يصعب التحكم فيها إداريا، وأخيرا المشاركة في المجالس الاستشارية المحلية، مما جعل بعض شيوخ الزوايا يقبلون بالانخراط في الأجهزة المحلية التي أنشأتها الحماية، وهو ما يمكن تأويله كونه نوعا من الإقرار بالواقع الاستعماري، وهذا ما دفع ليوطي إلى أن يردد قولته الشهيرة: "قل لي إلى أي زاوية تنتمي، أقل لك من أنت"[17].

وإذا كان المغرب ينعت ببلد المائة ألف ولي في إطار تعدد أوليائه الصالحين، وكون التصوف إحدى ركائز تدينه وانتمائه الروحي، فإن من البديهي أن تتعدد أيضا انتماءات نخبه العالمة والسياسة، لهذا نجد السلطان مولاي يوسف ينتمي إلى زاوية "درقاوة"، والبغدادي باشا مدينة فاس إلى زاوية "الوزانيين"، والتهامي الگلاوي باشا مراكش إلى الزاوية "التيجانية"، "أما الشعبيون في فاس من الخرازين والدباغين وجميع خدام الحرف التقليدية، فكانوا ينتمون إلى زاويا "عيساوة" و"حمادشة" و"هداوة"، فهي شبه أحزاب شعبية تتخوف النخبة من صفتهم الدينية التظاهرية بفاس..."[18].

أسباب تعاون الزوايا والطرق مع المستعمر

إن أسباب تعاون بعض الزوايا والطرق الصوفية مع المستعمر الفرنسي ليست يسيرة، فهي متعدد بتعدد مواقفها من الحماية التي مثل وجودها نقطة تحول كبرى في المشهد الديني والسياسي، حيث بدأت ترتسم ملامح جديدة لعلاقة الدين بالسلطة، وظهرت أنماط متعددة من التفاعل مع الواقع الاستعماري. وفي هذا السياق، أثارت مواقف الزوايا والطرق الصوفية أسئلة جوهرية تتعلق بحدود التدين، ووظيفة الزعامة الروحية، وإمكانات المقاومة أو التكيف. فلماذا حدث هذا التعاون؟ وما الذي دفع بعض الزوايا إلى العدول عن خيار المواجهة؟

والجواب عن هذا السؤال يقتضي مقاربة متعددة الأبعاد، تراعي تعقيد الوضعية التاريخية، وتشابك المصالح، وتحول وظائف الزوايا نفسها. فقد كان هذا التعاون ناتجا عن تفاعل جملة من الأسباب، نعرض لها فيما يلي.

أولا: الرغبة في الحفاظ على النفوذ الاجتماعي والسياسي، فالزوايا لم تكن الزوايا في المجتمع التقليدي مجرد مؤسسات دينية تُعنى بالعبادة والتصوف، بل كانت أيضا فاعلا رئيسيا في الحياة اليومية للناس. فقد لعبت دور الوسيط بين السكان والسلطة، وتولت أحيانا مهام القضاء، والصلح بين المتخاصمين، والإشراف على التعليم، وحتى تنظيم بعض الجوانب الاقتصادية المحلية. ومع دخول الاستعمار وتأسيس الإدارة الجديدة للحماية، بدأت هذه الأدوار تتقلص بسبب ظهور سلطات جديدة منافسة مثل القواد المعينين من طرف المستعمر، والمحاكم العصرية، والإدارة المدنية والعسكرية الفرنسية. هذا التهديد جعل بعض شيوخ الزوايا يفكرون في أساليب تحفظ لهم بعضًا من تأثيرهم السابق، فلجأوا إلى التعاون مع سلطات الحماية، ليس بدافع الخيانة، بل من أجل الحفاظ على مكانتهم الرمزية والعملية داخل المجتمع، ومحاولة التكيّف مع النظام الجديد.

ثانيا: الدافع البراغماتي والبعد النفعي، وهو من أبرز الدوافع التي جعلت بعض الزوايا تميل إلى تجنب المواجهة، حيث كان الكثير من شيوخ الزوايا يدركون حجم القوة العسكرية التي جاءت بها سلطات الحماية الفرنسية، خصوصا بعدما شاهدوا انهيار المقاومة المسلحة في بعض المناطق، وفشل محاولات المواجهة في وجه جيش مدجج بالسلاح، وذو خبرة قتالية متطورة. وبما أن الزوايا كانت تفتقر إلى القدرات العسكرية، ولا تملك الجيوش ولا الأسلحة الكافية، فقد رأت بعض القيادات الصوفية أن الدخول في مواجهة مباشرة سيكون انتحارا محققا[19]. لذا، اختاروا موقفا عقلانيا من وجهة نظرهم، يقوم على تجنب التصادم، والسعي إلى التفاهم مع المستعمر لحماية وجودهم، وأوقافهم، وتلامذتهم، وحركتهم الدعوية والتعليمية. وهذا الموقف البراغماتي يعكس حسابات دقيقة بين مصلحة البقاء ومخاطر المواجهة.

ثالثا: ضعف التعبئة العقائدية الجهادية لدى بعض الزوايا، أو بالأحرى، اختلاف التقدير الفقهي للواقع الجديد. حيث لم يكن جميع شيوخ الزوايا على نفس الدرجة من الحماسة للجهاد أو من الاتفاق حول مشروعية مقاومة النصارى، ففي حين اندفعت بعض الزوايا إلى إصدار فتاوى تدعو إلى الجهاد، مثل الطريقة الكتانية[20] أو بعض فروع التيجانية[21]، فضّل آخرون التريث، وأصدروا فتاوى تميل إلى السلم، أو التوقف عن القتال. هذا الاختلاف راجع إلى تباين الفهم الفقهي للواقع الجديد، وتقدير المصالح والمفاسد المحتملة. بعضهم رأى أن الجهاد في ظل موازين القوى القائمة سيؤدي إلى خسائر فادحة، وأن المصلحة تقتضي التهدئة وانتظار فرصة أفضل. ومن هذا المنطلق، اتخذ بعض الشيوخ موقفا يُشبه الحياد أو الانسحاب، لا عن جبن، بل بناء على اجتهاد ديني يوازن بين حماية الأنفس وصون الدين.

رابعا، التحول في العلاقة مع المخزن، فقبل فرض الحماية سنة 1912، كانت الزوايا تستمد جزءا كبيرا من شرعيتها ونفوذها من صلاتها القوية بالمخزن، أي بالسلطة المركزية المتمثلة في السلطان. فقد كانت تتلقى الظهائر السلطانية التي تعترف بمكانتها، وتمنحها الأوقاف، وتؤكد استقلالها المحلي. لكن بعد توقيع معاهدة الحماية، ضعفت سلطة السلطان، وفقدت الزوايا هذا السند السياسي الذي كان يوفر لها الحماية والتمويل. وفي غياب هذا الدعم، وجدت بعض الزوايا نفسها مضطرة للبحث عن طرف آخر يضمن لها الاستمرارية، ولو بشكل محدود. فالتفتت إلى سلطات الحماية الفرنسية، التي ظهرت كقوة قادرة على فرض النظام، وتوفير بعض الضمانات، ولو على حساب السيادة الوطنية والدينية.

خامسا: الاستراتيجية الاستعمارية نفسها، حيث أدركت سلطات الحماية منذ دخولها المغرب، أن الزوايا تملك تأثيرا واسعا في المجتمع، وأن كسبها سيساعد على بسط السيطرة دون الحاجة إلى استعمال القوة دائما. ولهذا تبنت فرنسا سياسة ذكية تقوم على الاحترام الظاهري للدين الإسلامي، وتقديم الدعم المالي لبعض الزوايا، والمشاركة في مواسمهم، والتأكيد الرسمي على احترام الأولياء والزوايا. بل أحيانا كانت تُصدر ظهائر باسم السلطان تضمن للزوايا بعض الامتيازات. هذه المقاربة جعلت عددا من الزوايا يرون في سلطات الحماية طرفا متفهما، وأقل عداء من المتوقع، مما سهل عليهم اتخاذ قرار التعايش معها، والسعي إلى إعادة التموقع داخل المشهد السياسي والديني الجديد الذي فرضه الاحتلال.

ولا يمكن تجاهل البعد المحلي والقبلي في تفسير هذا التعاون، إذ كانت الزوايا جزءا من نسيج مجتمعاتها، وتخضع أحيانا لمنطق التوازنات القبلية والولاءات العائلية، في بعض المناطق، كانت القبائل نفسها غير راغبة في الدخول في مواجهات، وهو ما فرض على الزاوية أن تعكس هذا المزاج العام وتتبناه حفاظا على استقرار المنطقة[22].

في ضوء كل ما سبق، يتضح أن تعاون بعض الزوايا مع سلطات الحماية لم يكن ناتجا عن "خيانة" أو "انتهازية" بالمعنى السطحي، بل كان نتاجا لشبكة معقدة من العوامل السياسية والدينية والاجتماعية، وتعبيرا عن سعي بعض الفاعلين الدينيين إلى تأمين حضورهم في زمن التحولات. وهو ما يدعونا إلى مقاربة هذا الموضوع بأدوات علمية دقيقة، تتجاوز الأحكام الأخلاقية أو الانطباعات العامة، لفهم سوسيولوجيا الزوايا من الداخل، وكيف أعادت بناء علاقتها بالسلطة في ظل هيمنة استعمارية قسرية[23].

وحين أولت فرنسا جانبا من اهتمامها بالزوايا والطرق الصوفية منذ مطلع القرن العشرين المنصرم من أجل التحضير لتنفيذ مشروع الحماية، "شجعت على إنجاز عدة دراسات عنها (الزاوية الوزانية – الزاوية الشرقاوية – الزاوية الناصرية – الزاوية الدرقاوية) بهدف تسخيرها في عملية الغزو والاحتلال. وظلت هذه العناية مستمرة خلال عمليات التمهيد العسكري إلى حدود سنة 1934"[24]، ومن تم استفاد العديد من شيوخ الزوايا من الحماية الفرنسية، والتي سميت في الكتابات التاريخية بـ"نظام الحماية القنصلية"[25]، حيث منحت لهم امتيازات عدة لأن "الحماية التي يمنحها لهم ممثلو الدول الأجنبية تجعلهم فوق القوانين وتعفيهم من التكاليف"[26]. وقد "كانت المفوضية الفرنسية أول من أقدم على خطوة من هذا النوع حين لم تتردد في بسط حمايتها خلال سنة 1884م على الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني كبير الزاوية الوزانية"[27]. وقد شكلت هذه الحمايات مشكلة كبيرة للمغرب وأسهمت، في ضعفه اقتصاديا، والرضوخ للضغوطات الاستعمارية، مما دفع بالعديد من العلماء إلى استنكارها ومعارضتها، فمن "المعروف أن مقاومة هذه الحمايات كان موقفا اجتماعيا من طرف كل علماء المغرب، وقد حملوا راية معارضتها بروح إسلامية قوية، وحمية وطنية مثالية"[28]. فاستعملوا وسائل عدة للتنديد بها وبخطورتها، وكان من بين هؤلاء من أفراد ألفوا كتبا في هذا الشأن، ومنهم من ندد عن طريق الخطب، من أجل تخليد هذه المواقف الوطنية، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- أبو الحسن علال بن عبد الله الفاسي الفهري (ت1896م)، له خطب تنديدية عديدة، أكثرها شهرة، خطبة "إيقاظ السكارى المحتمين بالنصارى"، وتسمى أيضا "الويل والثبور، لمن احتمى بالبصبور[29].

- أبو محمد جعفر بن إدريس الكتاني الحسني الفاسي (ت 1905م)، له: "الدواهي المدهية، للفرق المحمية"، وهو جواب عن سؤال طرح بشأن المحميين، أسسه على 15 آية تحرم موالاة الكفار والاحتماء بهم[30].

وبالتالي، فإننا نخلص إلى تعامل شيوخ الزوايا بنوع من المقاربة النفعية مع سلطات الحماية الفرنسية، واختارت عدم مقاومتها، لهذا نجد الكثير من شيوخ الزوايا اعتبروا فرنسا بلدا غير محتل للمغرب، وإنما هي مكلفة فقط بإدخال الإصلاحات الضرورية وحماية النظام كما هو منصوص عليه ضمن معاهدة الحماية[31]، وقد وصل الوضع ببعضهم إلى المدح والثناء والتهليل بوجودهم كما هو الشأن بالنسبة للشيخ محمد بن المهدي الدرقاوي، رئيس جامعة الطرق والزوايا بمراكش، في حوار له مع جريدة "الوداد"، يقول فيه: "نعم فرنسا التي رأت أمراضنا فأخذت تعالجنا بحكمة البصير وروح الخبير، ومقدرة المطلع، ولقيت مصاعب ومتاعب في استتباب الأمن والعدل، وضاعفت المجهودات في كل الميادين لرفع مستوانا، ومهدت لنا كثيرا من السبل كي يظل روح التفاهم ساريا بين العنصرين الفرنسي والمغربي"[32]. وقد بالغ الشيخ الدرقاوي في التمجيد إلى حد الإعجاب المفرط، فقال: "نحب دولة فرنسا لأنها قلبت وضعية المغرب من سيء إلى حسن، ومن خمول إلى نهضة، ومن فقر إلى غنى، ومن جهل إلى علم، حتى أصبح مغربنا يعد أحسن تقريبا من بعض الدويلات التي قامت الدنيا وأقعدتها لهرجها"[33].

والموقف نفسه نجده عند الفقيه بن صالح، مقدم الزاوية الكتانية، فهو الآخر يصرح بأن الحماية منذ دخولها المغرب، وهي تسعى في الرقي به في جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والمالية والعلمية والثقافية وغيرها، وفي نظره أن المغرب الذي كان صحراء قاحلة، تحول بفضل عناية الحماية إلى بساتين ومزارع ومدارس، وهذا –على حد قوله– يدل دلالة واضحة كالشمس في رابعة النهار على نهضة المغرب الجديدة التي نتمتع في رفاهيتها وخيراتها، ولا أستطيع أن أحصي تعدادا لمزايا فرنسا الخالدة في بلادنا[34].

لقد قدمت الزوايا خدمات كثيرة لسلطات الحماية، وقد تطورت هذه الخدمات إلى أن جعلت منهم "جواسيس وواشين، وبالخصوص في زاوية الهداويين التي كانت تجمع شكلا من الفقراء التائهين في مجموع تراب البلاد"[35]. مما دفع ببعض شيوخ الزوايا وهو الشيخ محمد بن عبد الله السكراتي الإدريسي إلى تبرير ذلك بشكل صريح حين قال: "إن شيوخ الطرق والزوايا الصوفية رجال أوفياء، ودأبهم الاقتداء بالشريعة المحمدية، واحترام العهود، وحيث إن فرنسا بطبعها تحترم الدين، فإن الصداقة الفرنسية الإسلامية هي عمدتنا وحرصنا المتين"[36].

وفي السياق نفسه يضيف شيخ الزاوية الناصرية بمراكش، الطيب بن سيدي الزوين قائلا: "ليس هناك ما هو أحسن من أن يشتغل الإنسان بما يعنيه، حتى الآن فإن فرنسا العظيمة لم تعمل إلا ما فيه مصلحتنا أولا"[37]، ثم يصدر تصريح آخر من قلب الزاوية القادرية على لسان شيخها الحسين القادري وهو المفتش العام لجامعة الطرق الدينية، مدعيا فيه أن الطرق والطرقيين منذ القدم لهم علاقة وطيدة بالحماية الفرنسية، ولا يعارضونها في قراراتها، "أما اليوم فهم يضعون فيها ثقتهم الكاملة، ولم يكتفوا بهذا وحسب، بل سيدافعون عنها متى رأوا ذلك مفيدا"[38].

خاتمة

لقد شكّلت الزوايا والطرق الصوفية بالمغرب حصونًا روحية وملاذات دينية حافظت على هوية الأمة وثوابتها في وجه الغزو الاستعماري، ولم يكن موقفها من الاحتلال الفرنسي مجرد خيار سياسي، بل كان في جوهره تعبيرًا عن وعي ديني عميق ومسؤولية شرعية تجاه الدين والوطن. فقد انطلقت مواقف المقاومة من فهم صوفي يرى في حفظ الأمة والدفاع عن أرض الإسلام واجبًا روحيًا لا يقل شأنًا عن المجاهدة النفسية والسلوك الأخلاقي.

وتجلّى هذا الوعي في مفهوم الجهاد الروحي الذي تبنّته الزوايا باعتباره امتدادًا للمجاهدة الشرعية ضد العدوان الخارجي، حيث اعتبرت أن مقاومة المستعمر ليست فقط قتالًا بالسلاح، بل هي أيضًا معركة لتحصين الإيمان، وصيانة العقول، وحماية المجتمع من الذوبان الثقافي والانهيار القيمي. فالزوايا أيقنت أن الاحتلال يسعى قبل كل شيء إلى تفكيك الروح الإسلامية، فبادرت إلى تعبئة النفوس بالموعظة والتعليم والتذكير بوجوب نصرة الدين، مما جعل مقاومتها ذات طابع مزدوج: عسكري وروحي في آنٍ واحد.

وهكذا، لم تكن الزوايا مجرد مراكز للعبادة والتعليم، وإنما تحوّلت إلى جبهات خفية تخوض معركة الوعي، وتجسد الجهاد الروحي باعتباره درعًا حاميًا للذات المغربية في الأزمنات. وقد ظل هذا الدور الروحي العميق من أبرز ملامح الممانعة الدينية والثقافية التي أسهمت في الحفاظ على كيان المجتمع المغربي رغم قسوة الاستعمار، وسطوة مشاريعه التغريبية.

الهوامش:

[1]- ربيع رشيدي، **الزعامات المحلية وعلاقتها مع المخزن**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أصكوم القنيطرة ط: 2019/1م، ص: 56.

[2]- سعيد بنحمادة، **المشهد الصوفي بالغرب الإسلامي تفتيت النسق وتركيب المقاربة**، ضمن كتاب: المجتمع والدين والسياسة أعمال مهداة الى الاستاذ محمد المازوني، كتاب جماعي، تقديم العميد أحمد بلقاضي –العميد حسن بنحليمة، تنسيق محماد لطيف – محمد العواد، كلية الآداب والعلوم الانسانية ابن زهر أكادير، مؤسسة افاق للدراسات والنشر والاتصال – مراكش، ط: 2021/1م، ص: 44.

[3]- المصطفى الريس، **ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي في الخمسينيات من خلال صحيفة "الوداد"**، المغرب زمن الحماية، مجلة المناهل، ع 89-90، وزارة الثقافة المغربية، يونيو 2011، الرباط، ص: 279.

[4]- عكاشة برحاب، **الزوايا والطرقية في سياسة الإقامة العامة (1950-1953)**، هيسبريس تمودا، أعمال الندوة الدولية "اشكالية الحماية "، الرباط 28 – 30 ماي 1998، عدد: 39، سنة: 2001، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ص: 78.

[5]- إدريس كرم، **دور الفقهاء في الحركة الوطنية من خلال رسائل عبد الله كنون**، مركز بلعربي العلوي للدراسات التاريخية، ط: 2019/1 ص: 271.

[6]- عبد الله العروي، **العلاقة بين الزوايا والمخزن في مغرب القرن التاسع عشر**، ترجمة: نوال متزكي، مجلة أمل، عدد: 22-23، سنة: 2001، ص: 15.

[7]- قاسم الحادك: **جوانب من مواقف الزوايا الدرقاوية من الاحتلال الفرنسي، 1881-1932**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين، الرباط، ط: 2014/1 م، ص: 241.

ويقول إبراهيم حركات: "للزاوية الدرقاوية نصيبها في صف المعارضة، وهي معارضة في إطار الأسرة الحاكمة، ولها ظروف محددة". ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج 03، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط: 1994/1، ج: 3، ص: 564.

[8]- عكاشة برحاب، **الزوايا والطرقية في سياسة الإقامة العامة (1950-1953)**، (م.س)، ص: 85.

[9]- روم لاندو، **المغرب في القرن العشرين**، ترجمة: نقولا زيادة، دار الثقافة – بيروت، ط: 1980، ص: 376.

[10]- ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج 03، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط: 1994/1، ص: 566.

[11]- عكاشة برحاب، **الزوايا والطرقية في سياسة الإقامة العامة (1950-1953)**، (م.س)، ص84.

[12]- ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج 03، (م.س)، ص: 566.

[13]- المصطفى الريس، **ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي في الخمسينيات من خلال صحيفة "الوداد"**، المغرب زمن الحماية، مجلة المناهل، ع 89-90، وزارة الثقافة المغربية، يونيو 2011، الرباط، ص: 278.

[14]- ينظر: عبد السلام الوزاني، **الزاوية الوزانية بالريف، الامتداد، الحضور، الإشعاع الاجتماعي الصوفي الجهادي والسياسي**، ضمن: دور الزوايا والعلماء والصلحاء في الكفاح والجهاد خلال الحقبة المعاصرة من تاريخ المغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة فضالة – المحمدية، ط: 2007/1، ص: 111-120.

15)- محمد ضريف، **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط، ط: 1992/1،، ص: 94.

16)- نفسه.

[17]- عبد الرحيم الوردغي، ، **فاس في عهد الاستعمار الفرنسي 1912 -1956**، المعارف الجديدة – الرباط، ط: 1992/01، ص: 46.

[18]- نفسه، ص: 47.

19)- عبد المجيد الصغير، **من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي في المغرب**، ضمن: الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ط: 1997، ص: 275.

20)- ينظر بشأنها: محمد الباقر الكتاني، **أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني**، تح: نور الهدى عبد الرحمن الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي، ط: 2005/1.

21)- ينظر بشأنها: أحمد الازمي، **الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج: 1، ط: 2000/1م.

22)- قاسم حادك، **الزوايا والطرق الصوفية في المغرب العلاقة مع المخزن والمستعمر**، مجلة دراسات، عدد: 26، دجنبر 2014، ص: 84.

23)- محمد العمراني، **الزاوية الوزانية والمخزن العلوي من مرحلة التأسيس إلى أواخر القرن الثامن عشر**، مجلة المناهل، عدد: 81/80، فبراير 2007، ص: 142.

24)- عكاشة برحاب، **الزوايا والطرقية في سياسة الإقامة العامة (1950-1953)**، (م.س)، ص: 76.

25)- ميمون أم العيد، **المحميون ... عندما طغى "ولاد الفشوش "على مغاربة القرن الـ19**، هيسبريس، 3 يناير 2020.

26)- عبد الوهاب ابن منصور، **مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880**، المطبعة الملكية – الرباط، ط: 1985/1 م، ص: 5.

27)- خالد بن صغير، **الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية: نموذجي الزاوية الوزانية والمصلوحية**، مجلة المناهل، عدد: 81/80، فبراير 2007، ص: 211.

28)- محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، شركة النشر المدارس، الدار البيضاء، ط: 1985/1م، ج: 2، ص: 255.

29)- نفسه، ص: 257.

30)- نفسه، ص: 257.

31)- المصطفى الريس، **ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي...**، (م.س)، ص: 277.

32)- نفسه، ص: 278.

33)- المصطفى الريس، **ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي...**، (م.س)، ص: 278.

34)- خالد بن صغير، **الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية...**، (م.س)، ص: 211.

35)- عبد الرحيم الوردغي، **فاس في عهد الاستعمار الفرنسي 1912 -1956...**، (م.س)، ص: 47.

36)- المصطفى الريس، **ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي...**، (م.س)، ص: 278-279.

37)- نفسه، ص: 279.

38)- ميمون أم العيد، **المحميون ... عندما طغى "ولاد الفشوش "على مغاربة القرن الـ19**، هيسبريس، 3 يناير 2020.